

المرجعية التاريخية في مقامات ابن الجوزي

الباحث. عصام إبراهيم عبد

esam 22021@uokirkuk.edu.iq

أ.م.د. باسم ناظم سليمان

Basem nadhem @uokirkuk.edu.iq

جامعة كركوك / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية

الملخص:

المرجعية التاريخية : هي الكشف عن المعالم والجوانب التاريخية داخل العمل الأدبي ، عبر مجموعة من الرموز مثل الأماكن التاريخية والأسماء والأحداث التي جرت في حقبة زمنية معينة من العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحالي ، فلكل أمة تاريخ تفخر به ويعتبر سجلها بما فيه من وقائع وأحداث وقد تكون في السلب أو الإيجاب ، كما ويعد التاريخ العربي والإسلامي مرجعية مهمة وملهمة سواء في تناول الموضوعات ، أم في سبك اللغة الإبداعية ، أم في توظيف بعض مظاهر التراث التاريخي والأدبي ، فالحروب والمشاحنات في العصور القديمة ، والمواقف التاريخية القديمة والحديثة تدخل ضمن سياق المرجعية التاريخية التي أستفاد منها الرواة بصورة كبيرة وجلية .

الكلمات المفتاحية: (المرجعية التاريخية، مقامات ابن الجوزي).

Historical reference in Ibn al-Jawzi's Maqamat

Researcher: Issam Ibrahim Abd

Assistant Professor: Basem Nazim Suleiman

University of Kirkuk / College of Education for Humanities / Department
of Arabic Language

Abstract:

Historical reference: is the disclosure of historical landmarks and aspects within a literary work, through a group of symbols such as historical places, names, and events that took place in a specific time period from the pre-Islamic era until our present era. Every nation has a history of which it is proud, and its record is considered to include the facts and events it contains, and they may be in positive or negative, Arab and Islamic history

is also an important and inspiring reference, whether in dealing with topics, in creating creative language, or in employing some aspects of the historical and literary heritage. Wars and quarrels in ancient times, and ancient and modern historical positions fall within the context of historical reference from which the narrators benefited greatly and clearly.

Keywords: (Historical reference, Ibn al-Jawzi's Maqamat).

أن الأديب " يستمد الأفكار والمضامين من سجل الماضي لأمته فيستحضر الشخصيات أو الأحداث الغابرة التي شغلت حيزاً في الذاكرة الثقافية "(١) . ويعرف التاريخ بأنه " التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال ، من مولد الرواة والأئمة ، ووفاة ، وصحة ، وعقل ، وبدون ، ورحلة ، وحج ، وحفظ ، وضبط ، وتوثيق ، وتجريح ، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة ، من ظهور ملة ، وتجديد فرض ، وخليفة ، ووزير ، وغزوة ، وملحمة ، وحرب ، وفتح بلد ، وانتزاعه من متغلب عليه ، وانتقال دولة "(٢) .

ويعد التاريخ تراث الأمم " ولقد كان التراث في العصور بالنسبة للشعراء والأدباء هو ينبوع الدائم والتفاخر بأصل القيم وأنصعها وأبقاها ، والأرض الصلبة التي يقف عليها ليبنى فوقها حاضره الشعري الجديد على أرسخ القواعد وأوطدها "(٣) . ويمكن القول بأن التراث الأدبي قد طبع أساليبه وتقاليده الفنية بأشكال قوية ومؤثرة على كل العصور ، كما ويعد التاريخ بشكل أساسي بأنه تاريخ شخصيات وذلك لأنها هي التي تضع المواقف والمتغيرات في حياة كل أمة من الأمم ، وتعد الشخصيات المخلدة في التاريخ هي موضع أستفاد الكاتب لها لاسيما عند ارتباطها بموقع أماكن معينة . ويعرف ابن خلدون التاريخ قائلاً : " فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ، فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمدت فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني "(٤) . ويعرف التاريخ بأنه : " مجموع أحوال الكون في زمان غابر ومجموع معلوماتنا حول تلك الأحوال "(٥) . فالتاريخ هو عملية نقل لحقائق ماضية ومحاولة تخليدها ، وربط الماضي بالحاضر من منطلق أنه لا يوجد حاضر ولا مستقبل بدون أن يكون هناك ماضي فالماضي هو العجلة التي تحرك الحاضر وتبني المستقبل . كما ويعد التاريخ مصدراً من المصادر التي يتكئ عليها الكتاب ، وذلك لأنه الرابط الفكري والفلسفي لسجل الأمم السالفة و الماضية و الواقع الذي مرت به ومضى ، ومن هذا يمكن للكاتب أن يجعل من التاريخ خير دليل على استمرارية الوجود الإنساني وديمومته ، وخير دليل و رابط وجودي للحقائق التي حصلت للواقع منذ وجود الأنسان على هذه المعمورة ، فهناك علاقة وطيدة بين الروايات و التاريخ ، كما قام أصحاب الرواية على

توظيف أنواع المرجعيات رغبة في توظيف أعمالهم الروائية ، فإننا نجد التاريخ هو الفن الذي يقوم بذاته شأنه بذلك شأن الفنون الأخرى ونجد التاريخ يفرض نفسه بكثرة فوائده وغاياته ، والخطاب التاريخية يعد مرجعاً معرفياً مهماً في جميع الخطابات الأدبية ، كما أنه لا يوجد عمل أدبي إلا وله خلفيات تاريخية تحركه .

أولاً : العصر الجاهلي:

أمتاز العصر الجاهلي بالانتماء القبلي ، ولا سلطة عندهم أعلى من سلطة القبيلة ، فكانت حياتهم قائمة على الصراع والقتال في الذود عن حمى القبيلة سواء أكانت على حق أم على باطل ، حيث كانت القبائل في الجاهلية تدخل في أحلاف مع القبائل الأخرى تسمى الاتحادات " حيث لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تنضم القبائل الضعيفة إلى القبائل القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البركري : فلما رأَت القبائل ما وقع بينها من الاختلافات والفرقة وتنافس الناس في الماء والكأ ، والتماهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم في ما يليهم (...) ، وبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها في نحوهم (...) ، وأصل الحلف والتحالف من كلمة الحلف بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو في دم ، وكانوا يقولون : الدم والهدم الهدم"^(٦) . هذا يبين أن القبائل القوية والكبيرة هي التي كانت تتحكم في القبائل الصغيرة الضعيفة ، فإن القبائل الصغيرة كانت مقيدة في الحركة والتنقل من مكان إلى آخر في البحث عن الماء والكأ ، حيث أنها كانت مجبرة على الدخول في أحلاف مع القبائل الكبيرة للحفاظ على أمنها من القبائل الأخرى ، وذلك لأن حياة الجاهلية كانت تبنى على الغزوات والحروب والغنائم من القبائل الضعيفة حيث " قضت أحوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو ، وهو في الواقع نوع من اللصوصية إلى مرتبة يقرها النظام القومي ، فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية ، وأستولى حب القتال على نفوس أهل البوادي حتى أصبح حالة عقلية مزمنة ، وأصبح شن الغارات نموذجاً للأعمال التي يليق بذوي الرجولة الحقة"^(٧) . كما تخضع الطبيعة البدوية في العصر الجاهلي إلى إخذ الثأر وقد " أصبح سنة من سنتهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، أذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرماهم ، ولم يكن لأي فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هي إلا أن يقتل أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته ، تتوازرها في الأخذ بئارها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، ويتوارثان الثارات حتى يدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغرم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تقادم الأمور وإلا بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل"^(٨) . استحضر ابن الجوزي بعض الحروب التي وقعت في العصر الجاهلي لكي يقدم حقيقة تاريخية للقراء وتعتبر هذه

الوقائع مرجعية تاريخية مهمة للقارئ وأن من أشهر الحروب التي سوف نقف عليها في العصر الجاهلي وأطولها زماناً هما حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء .

١- حرب البسوس :

وهي الحرب التي دارت " بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب ، وكان قد طغى واشتد بغيه على ناقة البسوس خالة جساس بن مرة سيد بني بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ، فاختلط لبنها بدمها ، ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كليب فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت فيما يقال أربعين سنة ، فكثرت أيامها مثل يوم عنيزة وكان سجلاً بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قضة (تحلاق اللمم) وفيه انتصرت بكر ، ولما أنهكت الحرب الفريقين لجأ إلى حارث بن عمرو الكندي ، فأصلح بينهما ، ونمت في العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبي المهلهل شقيق كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم (الزير سالم)^(٩) . وسميت هذا الحرب باسم البسوس لأن البسوس كانت تحمل على كليب من الحقد والكراهية ، وكانت على مرور الزمن تحرك ابن أختها جساس على كليب وتغيرهم بالعار وعدم مقدرتهم التصدي لكليب ، فلما قتل كليب ناقتها أخذت تندب وتلقي الأشعار على جساس و أبيه مرة بعدم مقدرتهم على حمايتها من كليب ، فثار ذلك الكلام غضب جساس وأخذ برمحه وطعن كليباً حتى أرداه قتيلاً ، فأخذ المهلهل زمام الحرب لكي يأخذ بثأر أخيه ، فستمرت الحرب أربعين سنة .

سبب حرب البسوس :

" كليب وائل : كان سيد ربيعة في زمانه ، قاد نزاراً كلها والعرب تضرب به المثل في العز والقوة والظلم ، وكان لا يظلم إلا القوي ، وبلغ من عزه وظلمه أنه كان يحمي الكلاً ، فلا يقرب أحد حماه ، ويجير الصيد فلا يهاج ، وكان الناس إذا وردوا الماء لم يسبق أحد منهم إلا بأمره ، أن أصابهم مطر وقد ظمئوا لا يخوض إنسان حوضاً إلا على ما فضل عنه ، وكان إذا أتى الماء وقد سبق إليه أحد ألقى عليه الكلاب فتنهشه ، وكان يعمد إلى الروضة تعجبه فيأمر بأن يؤخذ كلب وتشد قوائمه فيلقى في وسطها ، فحيث بلغ عواؤه كان حمى لا يراعي ، وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس ، ولا يحتبى في مجلسه غيره ، ولا يرفع صوت عنده "^(١٠) . وهذا يعني أن كليب كان مغروراً في قوته وفي ملكة وشديد المعاملة لبني مرة و بالرغم من أنه قد " تزوج جلييلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان ، وأخوها جساس بن مرة ، وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة ، وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال لها سراب ، ولهذا تقول العرب : أشأم من سراب ، وأشأم من البسوس ضرت أبل كليب بسراب ناقة البسوس ، وهي معقولة بغناء بيتها ، جوار جساس بن مرة ، فلما رأت سراب الأبل نازعت عقالها حتى قطعته ، وتبعته الإبل واختلطت بها ، حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض ، معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها فانترع لها سهماً فخرم ضرعها فنفرت

الناقة وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت : وأذلاه ، وأجاراه ، وأخرجت ، فأحس جساساً ، فركب فرساً له مغروراً به ، فأخذ ألته ، وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه ومعهم رمحه ، حتى دخلا على كليب الحمى ، فقال له : يا أبا الماجدة ، عمدت إلى ناقة جارتني ، فعقرتها ، فقال له : أتراك ما نفي أن أذب عن حمائي ، فأحسسه الغضب ، فطعنه جساس فقصم صلبه ، وطعنه عمرو ابن الحارث من خلف فقطع قطنه فوق كليب وهو يفحص برجله ، قال لجساس : أغتني بشربة من ماء ، فقال ، تجاوزت شبيبتاً والأحص " (١١) . تعتبر حرب البسوس مرجعية تاريخية مهمة يعود إليها الكتاب في كتاباتهم الأدبية لأنها تمثل حدث تاريخي مهم عن حياة العرب في الجاهلية وتبقى مخلدة ذكراها إلى عصرنا الحالي . تحدث ابن الجوزي في مقامته الثامنة والثلاثون الموسومة (بالأمثال) ، وهو يعطي مواعظ تاريخية للناس من خلال تلك الأحداث التاريخية ، فيقول : " أذا بقي ما يقوت فلا تأس على ما يفوت . من سعادة جدل وفقك عند حدك . أنفس الأعلاق حسن الأخلاق . من أحبَّ أحب صيد قلوب الرجال نثر لها حب الإحسان . الهدية تغور عين الحكيم . من أشرق باطنه بالعلم لم يضره إظلام ظاهره برثائة الثياب . الشرف بالهمم العالية لا بالرغم الباليه . النسب نسب المحبين . الهم يعمل في وخز النفوس عمل السوس في (حرب البسوس) . ما ضحك بما ليس فيك مخاطباً لغيرك . إذا ملى الجد ضاع الجد . من لم يجد لم يسد " (١٢) . يتبين من خلال حديث ابن الجوزي انه يعطي دروس وعظية على الصبر والتحمل على ما يقع على الإنسان من ابتلاء ومصائب ، وعليه أن يكون عاقلاً في تحكيم العقل وتخاذ القرار المناسب وتدارك الأمر وتجنب الوقوع في الهاوية التي لا يحمدها ، ويجب أن يعامل الناس بإحسان لكي تسود المحبة والرضى بين جميع الأطراف المتنازعة ، فإذا عمل الإنسان بعقلة سيتجنب الصراعات والحروب ويطفأ نار الفتنة التي على وشك أن توقد ، فتحكيم العقل السليم سيجنب من الوقوع في المحذور ، فابن الجوزي أستحظر (حرب البسوس) مثالاً على ذلك ، ولما ألت عليه من حروب وتدمير وتهجير وقتل ، وأن جميع القبائل العربية التي شاركت في تلك الحرب نالت نصيبها من القتل والتدمير ، وكل تلك الحروب التي دارت على مدى أزمنة طويلة جداً امتدت على مدار أربعين سنة وراح ضحيتها الكثير من القتلى من كلا الطرفين ، وكل هذا القتل والتدمير كان سببه بسيط وهو مقتل ناقة البسوس ، فأن ابن الجوزي يحث الناس من خلال هذه الحادثة إلى التحلي بالصبر وتجنب الوقوع في صراعات لا تحمد يدفع ثمنها جميع الأطراف المتنازعة ، كما وأن هذه الأحداث مثلت مرجعية تاريخه مهمة لكي يعي الناس من خلالها إلى التحلي بالصبر وتحكيم العقل والأخذ من حكماء العقل وكبار القوم لتجنب الوقوع في صراعات ستكون كل نار في الهشيم ، ويذهب ضحيتها الشيوخ والنساء والأطفال .

٢- عبس وذبيان :

"عبس وذبيان قبيلتان قيسيتان يرجع نسبهما إلى قيس ابن عيلان (...) ، ومن قيس هذا تشعبت بطون القيسية في شبه الجزيرة العربية فصارت تطلق على سائر العدنانية فيقال : قيس ويمن ، ومن قيس أنحدر كعب وعمر وسعد ، فأنجب سعد غطفان فعرضت هذه القبائل واشتهرت باسمه فولد لغطفان ريث وعبد العزى فكان لريث من الولد أهون ومازن

وأشجع وبغيض وقد أكثر شعراء القبيلتين من ترديد اسم بغيض في قصائدهم متوخين تذكير القوم برابطة الدم والقراية لأن بغيضاً كان أباً لعبس وذبيان^(١٣) حرب داحس والغبراء :

" قال أبو عبيدة الله : حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان أبني بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان السبب الذي هاجها أن قيس بن زهير ، وحمل بن بدر ، تراهننا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبق ، وكان داحس فحلاً لقيس بن زهير ، والغبراء حجراً لحمل بن بدر ، وتواضعا الرهان على مائة بعير ، وجعلا منتهى الغاية مائة غلوة ، والإضمار أربعين ليلة ، ثم قادوها إلى رأس الميدان بعد أن أضمر وهما أربعين ليلة ، وفي طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأمكن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتينا على طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً يردوا وجهه عن الغاية ، قال : فأرسلوهما فأحضرا ، فلما أحضرا خرجت الأنثى من الفحل ، فقال : حمل بن بدر ، سبقتك يا قيس ، فقال قيس : رويداً يعدوان الجدد إلى الوعث وتشرح أعطاف الفحل ، قال : فلما أوغلا في الجدد وخرجا إلى الوعث ، برز داحس عن الغبراء ودنا من الفتية ، وثبوا في وجه داحس فردوه عن الغاية ، ففي ذلك يقول : قيس ابن زهير :

وما لا قيت من حمل بن بدر وإخوته على ذات الإصا

هم فخروا علي بغير فخرٍ وردوا دون غايته جواد^(١٤) .

يكثر ابن الجوزي في الحديث عن الوعظ والإرشاد والصبر على المكاره وترويض النفس وتحكيم العقل ، فنراه في مقامته السادسة عشرة الموسومة (في النفس) ، يقول : " إن شق على القلب إقامة الجند فعلى الجبر ، وما أريد من جرايتهم ألا الصبر . فصحت بالقلب فنهض ، ووبخته فامتعض .

كم اصطبار على ذلٍّ ومنقصةٍ وكم على الذلِّ إقرارٌ وإذعانُ

تور والها ولتهن فيها نفوسكمُ إن المناقب للأرواح أثمانُ

فمن أبا الهوى حلت جماجمها على مناصلها عبس وذبيانُ^(١٥) .

يحث ابن الجوزي الناس على ترويض النفس وتحكيم العقل ، والعمل على فعل الخير ، وتجنب الشر والوقوع في المهالك ، وذلك لأن الإنسان كائن ضعيف يتعرض للنوازع الخير والشر وقد يضعف وينساق إلى طريق الشر ، ويدفعه إلى الظلم والتعدي على الآخرين ، حيث يزين له الشيطان فعل الشر ، ويبرر له كل تصرف منحرف وفيه مضرة على الآخرين ، أما عنصر الخير فهو الذي يحركه ضمير الإنسان ويجعله يشعر بالندم ويحثه على الرجوع إلى الحق وتجنب الصراعات والحروب التي تؤدي إلى المهالك ، وتختلف قدرات الإنسان وقوة أرائدهم فمنهم من يروض نفسه على السير على طريق الحق ، ويلزم نفسه بالاستقامة والأنصاف ولا يفقد الأمل بتغلب الخير ، ومنهم من ينساق وراء

الشر ويعجز عن إلزام نفسه عن فعل الخير ، فسيؤدي في نهاية الأمر إلى المشاحنات والحروب كما حل بالأقوام السابقة مثل (عبس) و(ذبيان) في حرب (داحس والغبراء) التي أستمريت أربعين سنة ، بسبب سباق ، ولو كان هناك تحكماً للعقل وترويضاً للأنفس ، لبقيت القبائل متجاوزة متحاببة مبتعدة عن كل الصراعات والقتل والتدمير والتهجير الذي حل بين أبناء العمومة . نرصد المرجعيات التاريخية في النص المقامي اللاحق استكثار على الموروث الثقافي التاريخي السابق لتضمين المقامة قصص تاريخية جاهلية وفي ذلك اشتهرت ثقافة الكاتب بسعة اطلاعه .

ثانياً : العصر الإسلامي:

كان العرب قبيل الإسلام أمة متفرقة لا يحكمهم ملك واحد بل ملوك و شيوخ و قبائل متفرقون، أدى ذلك إلى غياب قانون يرجعون إليه أو قوة تحفظ حقوقهم وتمنع الحروب والاعتداءات الجاهلية التي أنهكت الموارد الاقتصادية والبشرية عند العرب ، أدى ذلك إلى غياب أشكال الرعاية التي تقوم الدول عادة بعملها لمواطنيها من رعاية سياسية بحمايتهم من العدو الخارجي وأمنية بحفظ حقوقهم وحمايتهم من النزاعات الداخلية ، فلما جاء الإسلام قضى على جميع الظواهر القبلية والعشائرية التي بنيت على الحروب والغزوات والتي كانت سبب في تشتت العرب في الحقبة الجاهلية فالإسلام هو: " الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ما سبقها من شرائع سماوية ، وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل ، وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهم أصل في العقيدة الإسلامية الإيمان بوحداية الله " (١٥) . كما وأن الإسلام " ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقي قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس ونبذ كل الفواحش والردائل ، ومراقبة الأنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يجزى كل إنسان بما قدمت يده ، وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحي الذي يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعلنه ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه " (١٧) . استحضرت ابن الجوزي شخصية بلال بن رباح ، وهو مؤذن رسول الله ، وكان له منزلة رفيعة في العصر الإسلامي ، كما عرف بالشجاعة وتحمله لأشد أنواع التعذيب ، فيعد بلال بن رباح شخصية تاريخية إسلامية مؤثرة ، ويعد مرجعاً مهماً .

١- بلال بن رباح :

بلال بن رباح هو " مولى أبي بكر الصديق وأمه حمامه ، وهو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من السابقين الأولين الذين عذبوا في الله ، شهد بداراً ، وشهد له النبي عليه الصلاة والسلام ، على التعين بالجنة ، (...) ، وعن عبد الله ، أول من أظهر إسلامه سبع : رسول الله ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سميه ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد ، فأما النبي ، وأبو بكر فمنعهما الله بقومهم ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس فما منهم أحد إلا واتهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه في الله " (١٨) . حيث أن بلال كان يعذب ويجلد أشد العذب وذلك لدخوله دين الإسلام " فكان أمية يخرجها إلى رمضاء مكة إذا حمت ، فيلقيه على ظهره ، ثم يأمر

بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ويقول له : لا تزال والله كذا حتى تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد ، أحد ، ويضع أمية في عنقه حبلاً ، ويأمر الصبيان فيجرونه ، فمر به أبو بكر رضي الله تعالى عنه يوماً وهو يعذب ، فقال له : يا أمية ، أما تتقي الله في هذا المسكين ، فقال أمية : أنت أفسدته ، فأنتهذه ، وكان بلال تريباً لأبي بكر ، وأحد من دعاه أبو بكر رضي الله عنه إلى الإسلام ، فقال أبو بكر : عبدي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، وهو على دينك ، فأعطيك إياه ثمناً لبلال ، قال : قد قبلت ، فأعطاه ذلك الغلام وأخذ بلالاً فأعتقه ، وصار مولى لأبي بكر رضي الله عنه ^(١٩) . فقد كان بلال بن رباح رضي الله عنه يعذب أشد العذاب على يد أمية فقد مرة به أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعتقه ، وكان أبو بكر الصديق من الأوائل الذين صدقوا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ، كما وكان أول خليفة للمسلمين بعد وفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روي عن " عروة ابن الزبير قال : كان بلال بن رباح من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حيث أسلم ليرجع عن دينه ، فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ، وعن عمير بن أسحاق قال : كان بلال إذا اشتدوا عليه في العذاب قال : أحد ، أحد ، فيقولون له قل كما تقول ، فيقول : إن لساني لا يحسنه ، وعن موسى بن إبراهيم عن أبيه قال : أخی رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، بين بلال وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وكان محمد بن إسحاق يثبت مواخاة بلال وأبي رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ثم احد الفرع ويقول : لما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام خرج بلال إلى الشام فأقام بها مجاهداً ، فقال له عمر : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ، قال : مع أبي رويحة لا أفارقه أبداً للأخوة التي كان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم عقد بيني وبينه ، فضمه إليه وضم ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال منهم ^(٢٠) . كما وقد كان لبلال بن رباح مكانة كبيرة لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني خليفة للمسلمين بعد أبي بكر الصديق وكان له شأن كبير لدى المسلمين ، حيث فتحت العراق في عهده رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وكما نقل عن " أبي هريرة قال رسول الله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام لبلال عند صلاة الصبح : (حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني قد سمعت الليلة خشفة نعليك بين يدي في الجنة) قال : ما عملت عملاً أرجى من اني لم أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهار إلا صليت لربي ما كتب لي أن أصلي (...) ، حدثنا ابن بريده ، سمعت أبي يقول : أصبح رسول صلى الله عليه وسلم ، فدعا بلالاً ، فقال : (بم سبقتني إلى الجنة ، ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي ، إنني دخلت الجنة البارحة ، فسمعت خشخشتك أمامي ، وأتيت على قصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ، قالوا : لبلال) فقال بلال : ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما أصابني حدث إلا توضأت ^(٢١) . يتحدث ابن الجوزي في مقامته التاسعة والثلاثون الموسومة (في الوعظ) فيقول : " فقام فقير فقال : صف لي طريق القوم ، فقال : لا أصف لحسان الكسل ، أحضروا بلال العزم ، كانوا يتركون على صدر بلال الصخر في الرمضاء ولسان حاله يقول : لعينك ما يلقي الفؤاد وما لقي ^(٢٢) . يضرب ابن الجوزي في هذا الحديث مثلاً للوعظ والإرشاد للناس ، في سيدنا بلال رضي الله عنه كان مثلاً للصبر والتضحية من أجل الدين

الإسلامي ، حيث يتعرض للضرب والجلد لكي يترك هذا الدين ، ولكنه يصبر على الأذى والعذاب في سبيل الله تعالى ، وهو في ذلك يتغرب إلى الله بالصبر على العذاب ولا يترك دينه ، وها هو الإسلام يعلي من شأن الضعفاء والفقراء ، ويقدمهم على الحساب والأنساب والأعراف ، فلا عز إلا عز الطاعة ولا شرف إلا شرف الإيمان ، وإن كان صاحبه عبداً ، فبلال رضي الله عنه كان عبداً ضعيفاً فقيراً فأصبح ذو شأن كبير من صحابة رسول الله ، فيعد بلال بن رباح رضي الله تعالى عنه مرجعاً تاريخياً وإسلامياً مهماً لجميع المسلمين ، لما له من دلالة كبيرة على تحمل أشد أنواع العذاب والصبر على ما ناله من أذى وظلم ، فاردة ابن الجوزي من هذا المثال هو للوعظ وإرشاد الناس على الصبر وتحمل العذاب من أجل الدين الإسلامي وعدم الخروج عن طاعة الله تعالى .

ثالثاً : العصر الأموي

العصر الأموي هو " عصر الدولة الأموية في الشام ، من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ للهجرة (٦٦١ - ٧٥٠م) ، نحو تسعين عاماً من الدهر ، والخلفاء الذين حكموا في هذه الدولة ينتمون إلى فرعين هما : الفرع السفيني والفرع المرواني ، بعد معركة صفين نادى معاوية بن أبي سفيان والي الشام بنفسه خليفة على الشام وحكم عشرين سنة ، من السنة ٤١هـ إلى السنة ٦٠هـ (٦٦١ - ٦٨٠م) ثبت الملك في إثنائها لبني أمية وجعل الخلافة وراثية في نسله ، وكانت المشكلة الأساسية التي واجهت معاوية أن أقطار الخلافة الباقية : الحجاز و العراق و مصر وما وراءها كلها لم تكن تابعة له ، ثم كان له فيها منافسون أقوياء ، غير أن معاوية استطاع أن يستولي على مصر بشيء من اليسر وأن يستولي أيضاً على بعض العراق وأن يقوم ببعض الفتوح في المشرق والمغرب ، ولقد كان أقوى منافسيه عبد الله بن الزبير وكان يبسط نفوذه على الحجاز كله ، وعلى جانب من العراق أيضاً ^(٢٣) . ويمكن القول بأن الدولة الإسلامية عانت من " فرقة شديدة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان فقد شهد عصر الخليفة علي بن أبي طالب (٣٥هـ - ٤٠هـ ٦٥٦١ - ٦٦١م) ، حرباً أهلية وتمرداً لبعض الولايات المفتوحة وانتهت الحرب الأهلية بوصول معاوية بن أبي سفيان إلى الخلافة ، وقد واجه معاوية معارضة شديدة من قبل فئات متعددة لانه تمكن من التغلب عليها وأعاد الأمن والاستقرار للدولة العربية ، ثم استأنف العرب في عهده حركة الفتح والتحرير في الشرق والغرب وكوا معاقل البيزنطيين وحاصروا عاصمتهم القسطنطينية ^(٢٤) . فقد قام العرب المسلمون في العصر الأموي على تطوير العلوم الدينية حيث تعد العلوم الدينية في مقدمة العلوم التي نالت اهتمام العرب المسلمين وعنايتهم خلال العصور المختلفة حيث تأسست المدارس الدينية في أقاليم الدولة العربية والإسلامية ببعض الجهود التي بذلها الصحابة الذين شاركوا في حركة الفتح الإسلامي وتفرقوا في الأمصار وكان أساس تلك المدارس القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم الفقه ، فكان بداية التأليف العلمي عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر وكان المدينة والبصرة والكوفة والقسطاط ودمشق من أقدم وأهم مراكز الحركة العلمية ويعد علم القراءات أساس علوم التفسير ويتناول أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط ، ومن أشهر العلماء في هذا الميدان نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني في المدينة ، وعبد الله بن كثير

مولى عمر بن علقمة الكناني (ت ١٢٠هـ) في مكة ، وعاصم ابن أبي النجود (ت ١٢٨هـ) في الكوفة ، وعبد الله بن عامر اليحصني (ت ١١٨هـ) في دمشق^(٢٥).

١- قيس مجنون ليلي :

" وهو قيس بن مُعاذ ، ويقال قيس بن الملوح ، أحد بني جعدة ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ويقال بل هو من بني عقيل ابن كعب بن ربيعة ، ولقبه المجنون لذهاب عقله بشدة عشقه ، وكان الأصمعي يقول : لم يكن مجنوناً ، ولكن كان فيه لوثة كلوثة أبي حية ، وهو من أشعر الناس ، على أنهم قد نلوه شعراً كثيراً رقيقاً يشبه شعره ، كقول أبي صخر الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ

لقد تركتني أحسد الوحوش أن أرى أليفين منها لا يروعهما النفزُ

فيا هاجر ليلي فد بلغت بي المدى وزدت على ما لم يكن بلغ الهجرُ

ويا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعذك الحشر^(٢٦) .

وكان المجنون وليلى صاحبته يريهان البهم وهما صبيان فعلقها علاقة الصبا ، وفي ذلك يقول :

تعلقتُ ليلي وهي غرٌ صغيرةٌ ولم يبذُ للأتراب من ثديها حجُمُ

صبيان نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم يكبر البهمُ^(٢٧) .

ثم نشأ وكان يجلس معها ويتحدث في ناس من قومه ، وكان جميلاً ظريفاً راوية للأشعار حلو الحديث ، فكانت تعرض عنه وتقبل على غيره بالحديث ، حتى شق ذلك عليه ، وعرفته منه ، فأقبلت عليه فقالت :

كلانا مظهرٌ للناس بغضاً وكلٌّ عند صاحبه مكينُ^(٢٨) .

أن قيس كان شديد الحب ليلي ، وذلك لأنه كان يجالسها منذُ طفولتها ، حيث نشأ معاً " إلى أن كبرت وحجبتها أبوها ، فهم على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش ، فيرى حيناً في الشام وحيناً في نجد وحيناً في الحجاز ، إلى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت فحمل إلى أهله ، وقد جمع بعض شعره في ديوان وصنف ابن طولون المتوفي سنة ٩٥٣ ، كتاباً في أخباره سماه بسط سامع المسامر في أخبار مجنون بني عامر (...) ، وكان الأصمعي ينكر وجوده ، ويراه اسماً بلا مسمى ، والجاحظ يقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ، فيه نكر ليلي إلا نسبوه إلى المجنون ، ويقول الكلابي : حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له^(٢٩) . كما أن قيس قد عشق ليلي عشقاً كبير حتى علم به جميع الناس وذلك ما أفسد عليه الزواج من ليلي لأن " من عادات العرب أن يمتنعوا عن تزويج الفتاة لمن أحبها إذا افتضح أمر حبهما ، فكان أن حرم هذا الحب من تحقيق البغية ، فحرما من اللقاء تحت سقف واحد ، فنجم عنه شعر رقيق ، وحب سام ، وقصة تداولها الناس ، كان قيس يزور ليلي سراً وعلانية ، ويطوف بديارها موجودة أو ظاعنة ، والحرمان يقطع قلبيهما ، وقد حاول أهله مراراً خطبتها من أبيها ، ولكنه كان يمتنع للعادات والأعراف ، كما حاول بعض الأمراء والأعيان التدخل والتوسط لدى أبيها ، وكانت النتيجة امتناعه لهذه

الأعراف ، وكان قيس المسكين عقب كل مسعاها تنقطع نياط قلبه ، ويعتريه الذهول والهيام ، حتى هام على وجهه ، واختل عقله ، ودعي بالجنونية ، وبمجنون ليلي ، وبمجنون العامرية ، وبمجنون بني عامر (...) ، ومن أعرافهم أيضاً ، أن يتسابق الشبان إلى خطبة الفتاة التي اشتهرت بحبها ، كأنهم يرون فيها شيئاً متميزاً ، وهكذا تسابق الشبان إلى خطبة ليلي وكان أبوها يرفضهم ويترفع عنهم ، حتى خطبها رجل من ثقيف اسمه ورد بن محمد ، وكان من أثرياء قبيلته ، فتروجها وعاشت في دياره (...) ، وأن قيساً كان يزور ديار ورد ، فيخطب ليلي ويخطب ورداً^(٣٠) . ويمكن القول بأن قصة قيس وليلى " هي قصة عاشق وعاشقة ، جرت أحداثها في صحراء الجزيرة العربية في منتصف القرن الهجري الأول ، ولا يطعن في القصة أن تكون الشخصيتان موجودتين تاريخياً أو لا تكونا ، وكل ما يهمنا أن القصة وجدت عند العرب ، وذكرتها كتب الأدب ، وطعمتها بشعرها الصحيح أو المنسوب إليهما والشهرة التي حظيت بها قصة حبهما دفعت كثيراً من الآداب الشرقية إلى التأثر بها ، وهكذا انطلقت من مجالها الضيق إلى الأفق الرحب ، فعشق فتى لفتاة ظاهرة اجتماعية عادية ، بل أن سنة الكون أن يسمو الحب بين الطرفين منذ خلق الله آدم وحواء ، ولكن المثالية في هذا الحب ، والصراع الذي عاناه العاشقان ، والمجتمع الذي رفض لقاء الأثنين ، جعل القصة ذات جاذبية تأخذ بألباب سامعيها عرباً وغير عرب"^(٣١) . أستحضر ابن الجوزي قصة مجنون ليلي في مقامته السادسة والثلاثون الموسومة (في دواء العشق) ، لأنها من أكثر القصص تأثيراً في مجال العشق ولتكون مرجعاً تاريخياً مهماً ، لأنها تبين مدى تأثير العشق على حياة الإنسان ، فيقول : " أخبرني عن بعض ما جرى على العشاق . فقال : محن لا تطاق كان مجنون ليلي لا يعرف نهاراً ولا ليلاً . غلب على قلبه الوسواس . فهرب إلى الوحش عن الناس . فقال :

إني لأجلس في النادي أحدثهم فأسْتَفِيق وقد غالتني الغولُ

يهوى بقلبي حديث النفس نحوكم حتى يقول جلسي أنت مخبولٌ (...) ، فكيف كان حال ليلي بعده ، فقال : ما كانت تختار بعده غير أنهم زوجوها وأرجوها فمرّ المجنون على زوجها وهو يصطلي بجمر ، فقال له : يا عمرو

بريك هل ضمنت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبلت فاها

وهل رفت عليك قرون ليلي رفيف الأضحوانة في نداها

فقال: نعم فقبض من الجمر الذي لديه بيديه ، فما رماه حتى سقط لحم كفيه وخر مغشياً عليه"^(٣٢) . يدل هذا الحديث على أن قيس قد جرت عليه محنة كبيرة وهي محنة العشق الذي أخذت عقله وقلبه وأصبح مجنوناً لا يعرف ليله عن نهاره من شدة حزنه على ليلي ، وأصبح قيس ضعيف لا يقوى على الجلوس مع الناس ، فكانت البرية هي جلسيه فزاد به الأمر سوءاً حتى فقد عقله ، فكان لا يؤويه مكان ولا يعلوه ثوب إلا مزقه ، فأصبح لا يفهم شيئاً عن ما يتكلم ، كما ويتبين من خلال أبيات قيس بأنه يجلس في النادي يحدث الناس ، ولكنه عندما يصحو يجد نفسه وكأنما في حلم أو في غيبوبة من نفسه ، فيهوى حديث النفس بقلبه نحوهم ، أي أن قيس متشوق للحديث مع محبوبته ليلي التي لم يستطيع رؤيتها بسبب منع أهلها له من رؤيتها ، فيقول جلسيه : أنت مخبول : جلسيه هم العشاق الذين مرو بهذه

التجربة فكانوا يبينون لقيس بأن أمره كان لا يخفى للجميع بأنه عاشق وأصبح كل مخبول ، فكيف كان حال ليلى ، وكانت ليلى أيضاً تحب قيس بنفس درجة حبه لها ، فقد كانوا كلاهما يعيش بعضهما لآخر لأبعد الحدود ، فلما رفض أبوها تزويجها من قيس حزنت حزناً كبيراً فلم تكن تقبل الزواج بأي شخص يأتي لخطبتها إلا أن أباهما أجبرها على الزواج من شخص اسمه ورد ، ثم يأتي قيس المجنون على زوج ليلى وأنشده :

بربك هل ضمنت إليك ليلى قبل الصبح أو قبلت فاها ،

فقال له زوجها : نعم ، يبدو أن قيس من شدة الحب والعشق لليلي وأنه غير مستوعب الأمر أخذه به جنونه إلى زوج ليلى ليسأله عن ما جرى مع ليلى ، فعندما أستوعب قيس الأمر بأن ليلى لم تعد له أصبح كل مجنون فأقبل على النار ليقبض على الجمر في يديه ، وبقة ماسكاً الجمر من شدة تأثره بما سمع عن حبيبته ليلى حتى سقط لحم كفيه وخر مغمياً عليه . لقد سرد ابن الجوزي هذه القصة التاريخية ليبين ضرر اتباع الهواة على النفس .

٢- الحسن البصري :

هو " أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، كان من سادات التابعين وكبرائهم ، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما غابت في حاجة فيبيكي فتعطيه أم سلمة ، رضي الله عنها ، ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه ، فدر عليه ثديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك ، قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقيل له : فيهما كان أفصح ، قال : الحسن ، ونشأ الحسن بوادي القرى ، وكان من أجمل أهل البصرة ، حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث ، وحكى الأصمعي عن أبيه قال : ما رأيت أعرض زنداً من الحسن ، كان عرضه شبراً ^(٣٣) . ولد في نهاية خلافة عمر بن الخطاب حيث " ولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وكان يوم الدار ابن أربع عشر سنة واحتلم سنة سبع وثلاثين ، وخرج من المدينة ليالي صفيين ولم يلق علياً وقد أدرك بعض صفيين ، ورأى عشرين ومائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما شافه بديراً قط إلا عثمان وعثمان لم يشهد بديراً ، مات في شهر رجب سنة عشر ومائة وهو ابن تسع وثمانين سنة ، وكان يدلس ، صلى عليه النضر بن عمرو المقري من حمير من أهل الشام ، وكان الحسن من أفصح أهل البصرة لساناً وأجملهم وجهاً وأعبدتهم عبادة وأحسنهم عشرة وأنقاهم بدنأ رحمة الله عليه ^(٣٤) . أن الحسن البصري قد ولد في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، كما أنه رأى الكثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي وعمره تسع وثمانون عاماً ، وكان من الأنقياء الأنقياء أفضل أهل البصرة . أستحضر ابن الجوزي شخصية الحسن البصري لما له من أثر عظيم في الحفاظ على هذا الدين ، وكان عالم من أعلام المسلمين ، وله تأثير كبير في نفوس مستمعيه ، أذ يقول : " ولاح لنا سور البلد فطربنا فأرحنا إيلنا من اللغب واسترحنا . وأطرحنا ذكر التعب وانطرحنا . ثم دخلنا المدينة وإذا منادي الجمعة فأجبننا وتأهبننا وقوينا . فلما جزمنا ما التزمنا من الفرض . وحننا حنين العشار إلى الانتشار في الأرض . علا على المنبر عالم ظريف الخلائق ، وحف به عالم كثير من الخلائق ، فولجنا فح زمرة . وقلنا : تردف

الحج عمرة . فأناسنا من الكلام الحسن . بعبارة أحلى من الشهد . في ترقيق ألين من الزبد . بتخويف أظع من الرد ، فإذا القلوب تتوجع من الوجد ، وتبكي بكاء أمر من فقد . فعجبنا من أعمال تلك المواظ ، وكمال ذلك الوعظ^(٣٥) . يتبين من خلال حديث ابن الجوزي أن مجموعة من الأشخاص كانوا في سفر فأرهبهم الطريق ، فعندما رأوا أسوار مدينة البصرة فرحوا وأرادوا الاستراحة فيها وأن يريحوا إبلهم ، فعندما دخلوا المدينة سمعوا منادي الجمعة وهو يؤذن في المسجد ، فذهبوا إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة ، فاعتلى المنبر الحسن البصري رحمه الله تعالى ، وكان في المسجد أناس كثر يستمعون إلى خطبته ، وكان الزحام كبير كأنما في الحج أو العمر ، هنا تشبيه جميل ، وذلك من كثرة الناس في المسجد والزحام ، كأنما في حج أو في عمرة ، وكان كلام الحسن البصري جميلاً موزون أحلى من العسل ، كان كلامه في ترقيق ألين من الزبد ، وبخويف أظع من الرد ، هذا يدل على أن الله تعالى واسع المغفرة والرحمة لمن أطاع وتاب إليه توبة صادقة ، وأن الله شديد العقاب لمن أنتهك حرمانه وتجاوز حدوده ، وأن القلوب كانت تعتمر من شدة ذلك الكلام لما له من أثر كبير في النفوس ، وتبكي بكاء أمر من فقد ، أي أنهم كانوا يبكون من خشية الله والخوف من عذابه ، أشد من بكائهم على فقدان قريب أو صاحب ، فقد كانت مواظ مبنية على التنكير بالخير وما يرق له القلب ويلينه ، والتنكير بعذاب الله تعالى لمن يتعدى حدود الله ، يعد الحسن البصري رحمه الله تعالى مرجعاً مهماً لعامة المسلمين لما يحمل من علوم ومعرفة في شؤون الدين الإسلامي .

رابعاً: العصر العباسي:

من ابهى العصور التاريخية ثقافة وعلماً وأدباً وترجمة بسبب التلاحم الحضاري والاحتكاك وازدهار الترجمة والتurf المادي " حكمت دولة الخلافة العباسية قرابة ٥٢٤ عاماً : (١٣٢ - ٦٥٦ هـ ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) ، وابتدأت بأبي العباس السفاح وانتهت بوفاة المستعصم ، حيث زالت على أيدي المغول ، ولم تكن هذه الفترة الزمنية على نمط واحد من حيث قدرات الدولة وقوة الخلافة^(٣٦) . وأن انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين ليس مجرد انتقال حكم إلى حكم آخر أو استبدال خليفة على قرار خليفة ثاني بل " قد صحبه تغيير جذري ، وتطور واسع وعميق في مجمل الحياة الإسلامية ، وقد تجلى ذلك في الاتجاه العام للخلافة العباسية ، وتمثل في بادئ الأمر ، بنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد ، مشكلاً بذلك خطوة نوعية في الانتقال من العالم البيزنطي إلى العالم الفارسي ، هذا وقد تراجع النشاط الحربي الكبير الذي شهده العصر الأموي على الجبهة الغربية في عالم البحر المتوسط ، ونظر العباسيون إلى شواطئه على أنها حدود ، ونهايات لدولتهم ، ينبغي الدفاع عنها لا الهجوم منها ، ونتيجة لهذا التراجع تولت الإمارات الإسلامية في المغرب والأندلس مسؤولية الدفاع عن الحوض الغربي لهذا البحر ، وانصرف العباسيون ، بشكل عام ، نحو الشرق ، ففي تركستان ، أوقفوا الخطر الصيني الزاحف على ديار المسلمين ، ثم سادت علاقات وثيقة بعد ذلك ، مع العالم الصيني ، خاصة التجارة ، وتوسع المسلمون في إقليم السند ، ووطدوا النفوذ الإسلامي هناك ، ونمت البحرية الإسلامية في المحيط الهادي ، لتؤدي دوراً تجارياً ، فأتاح ذلك لتجارة الهند أن تدخل أسواق العراق بطمأنينة ، كما أتاح للثقافة الهندية أن تواكب التجارة ، وقد أدى تفاهم العباسيين مع الصين إلى فتح أسواق الشرق الأقصى أمام تجارة

متبادلة غنية ، كما أدى تفاهم العباسيين مع ملوك الفرنجية إلى إتاحة الفرصة لتجارتهما أن تمتد إلى غرب أوروبا وشمالها الغربي ، إلا أن التركيز اقتصر على الشرق^(٣٧) . يمكن القول بأن الدولة العباسية كانت قائمة على سياسة توقيع الصلح والصدقات مع الدول الأخرى ، وتجنب الوقوع في الحروب والأطماع والمشاحنات الدولية ، كل ذلك مهد للدولة العباسية أن تنهض على جميع الأصعدة سواء على المستوى السياسي أو المستوى الاقتصادي أو التعليمي أو العمراني .

الإمام أبي الحسين ابن سَمْعُون :

هو" أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل ابن عبيس بن سمعون وكان يلقب الناطق بالحكمة عن أبي بكر الأصبهاني ، وكان خادم الشبلي ، قال : كنت بين يدي الشبلي في الجامع يوم جمعة فدخل أبو الحسين بن سمعون وهو صبي على رأسه قلنسوة بشفاشك مطيلس بغوطة ، فجاز علينا وما سلم ، فنظر الشبلي إلى ظهرة وقال : يا أبا بكر أتدري أي شيء لله من الذخائر في عذا الصبي ، وقال الحسن بن محمد الخلال : قال لي أبو الحسين بن سمعون : ما اسمك ، فقلت : حسن فقال : قد أعطاك الله الاسم فسله أن يعطيك المعنى ، وقال أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن المظفر : سمعت ابن سمعون يقول : رأيت المعاصي نذالة ، فتركها مروءة ، فاستحالت ديانةً ، وقال أبو الفتح القولس لحقتي إضافة في وقت من الأوقات ، فنظرت فلم أجد في البيت غير فوسٍ لي وخفين كنت ألبسها ، فأصبحت وقد عزمت على بيعهما ، وكان يوم مجلس أبي الحسين بن سمعون ، فقلت في نفسي : أحضر المجلس ثم أنصرف فأبيع الخفين والقوس فحضرت فلما أردت الانصراف ناداني أبو الحسين : يا أبا الفتح لا تبع الخفين ، ولا تبع القوس ، فإن الله سيأتيك برزقٍ من عنده أو كما قال : وعن علي بن طلحة المقري قال سمعت أبا الحسين بن مسعود يقول : كل من لم ينظر ، بالعلم ، فيما الله عليه فالعلم حجة عليه ووبال^(٣٨) . أما سنة وفات ابن سمعون فقد " أنبأنا أبو نعيم الحافظ قال : توفي أبو الحسين بن سمعون في ذي القعدة أو الحجة سنة سبع وثمانون وثلاثمائة (...) ، وأنبأنا أحمد بن محمد العتيقي قال : سنة سبع وثمانين فيها توفي أبو الحسين بن سمعون الواعظ يوم النصف من ذي القعدة ، وكان ثقة مأموناً ، قال الخطيب : وذكر لي غير العتيقي أنه توفي الخميس الرابع عشر من ذي القعدة ، ودفن في داره بشارع الغتابيين ، فلم يزل هناك حتى نقل في يوم الخميس الحادي عشر من رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة فدفن بباب حرب^(٣٩) . أستحضر ابن الجوزي شخصية ابن سمعون ، لما لها من أثر كبير في الوعظ وإرشاد الناس إلى الطريق الصحيح والهداية والرجوع إلى الله تعالى ، إذ يقول : " قد سمعنا بأبن سمعون . وما الإبكار مثل العون . فأشد :

أبى الله إلا أن سرحة مالكٍ على كل أفنان العضاة تروقُ

ثم قال : من سمع كلامي طرب ودهش . والعجب لمن لم يطر ولم يطش ، شرابٌ من أكثر من شربه عطش ، يعجب من سماعه ابن سمعون لو نبش ، أحسن من ثوبٍ موسى قد نقش ، غطى على إشارات الشبلي ونكت المرتعش ، فصاحةً وصباحةً وحسناً تنتقش^(٤٠) . تحدث ابن الجوزي عن وعظ ابن سمعون ، إذ يصفه بأوصاف جميلة إذ يقول : وما الإبكار مثل العون ، هنا تشبيه جميل في قوله الإبكار أي أنه كشروق الشمس في وقت الصباح ، حيث أنه كان

الطريق المنير على من ظلم عليه حاله ، والعون ، أي أنه كان عوناً للناس أذ كان يقدم لهم أجمل المحاضرات في الوعظ والإرشاد من أجل هدايتهم إلى الطريق الصحيح ونيل مرضات الله تعالى ، ثم يصف ابن الجوزي ابن سمعون من خلال البيت أذ يقول :

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفنان العضاة تروق

في هذا البيت تشبيه جميل لأبن سمعون ، (سرحة) ، فقد شبه ابن الجوزي ابن سمعون بالسرحة وهي الشجرة الطويلة ذات الظل البارد الذي يقي حر الصيف ، وهذا التشبه يبين لما لأبن سمعون من مكانة كبير في خدمة الناس ، فقد كان في وعظه وإرشاده لهم كالظل ، فقد كان يقدم لهم مواعظ تنجيهم من النار وحرها والفوز بالجنة ونعيمها ، كما أن من سمع كلامه طرب ودهش ، أي أن كلامه كان نقياً طاهراً عذباً أذا سمعه المتلقي أنصاع وتبع وسار على طريق الحق ، والعجب لمن لم يطر ولم يطش ، هنا استغراب وتعجب لمن يسمع كلامه ووعظه ويبقى في غفلة من أمره ، كما وقد كان ابن سمعون له يد طويلة في الوعظ ، كما له من الفضائل الكثيرة في خدمة الناس في مجال الوعظ والإرشاد ، كما كان ذو فصاحة في الكلام ، وكان جميل حسن الخلق والأخلاق باراً بأمه لا يثنيه عن قول الحق . لقد احتوى النص المقامي اللاحق شخصية عباسية دلالة على سعة ثقافة الكاتب ابن الجوزي - وفي هذا النص التاريخي - نتطلع سعة ثقافة واطلاع ابن الجوزي على أدباء العصر العباسي .

الهوامش:

- (١) مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد ١٨ ، العدد (١) ، السنة ٢٠٢٢ .
- (٢) الإعلان بالتوبيخ لمن نذر أهل التورخ : الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، تح . سالم بن غتر بن سالم الظفيري ، دار الأصمعي ، ط ١ ، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م / ٩١ .
- (٣) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر : د . علي عشري زايد ، دار الفكر العربي ، (د-ط) ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م / ٧ .
- (٤) المقدمة : العلامة ولي دين عبد الرحمن بن محمد أبن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، تح . عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، ٩٢/١ .
- (٥) مفهوم التاريخ : عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي ، ط ٥ ، المغرب ، ٢٠١٢ ، ٣٣/١ .
- (٦) ينظر : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : دكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ١١ ، (د-ت) / ٥٨ .
- (٧) تاريخ العرب : الدكتور فيليب حتي وآخرون ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٤٩ ، ٣١/١ .
- (٨) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : دكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ١١ / ٦٢ .
- (٩) م - ن : ٦٥ - ٦٦ .
- (١٠) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، تح . محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، (ب-ط) / ٩٩ .

- (١١) العقد الفريد : الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) ، تح . دكتور عبد المجيد الترحيني ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م ، ٧٠/٦ - ٧١ . (اذب : أحمي وأدافع) (القطن : أسفل الظهر من الإنسان) (شبيث والأحص : غديران في منازل ربيعة بنجد) .
- (١٢) مقامات ابن الجوزي . المقامة الثامنة والثلاثون (بالأمثال) / ٣٠٨ - ٣٠٩ .
- (١٣) الشعر في حرب داحس والغبراء : عادل جاسم البياتي ، مطبعة الأدب في النجف الأشرف / ١٩ .
- (١٤) العقد الفريد : ابن عبد ربه الأندلسي ، ط١ ، ١٧/٦ - ١٨ .
- (١٥) مقامات ابن الجوزي . المقامة السادسة عشرة (في النفس) / ١٣٣ .
- (١٦) تاريخ الأدب العربي : دكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٧ ، ٢ / ١١ .
- (١٧) م - ن : / ١٥ .
- (١٨) سير أعلام النبلاء : الذهبي ، / ١ - ٣٤٧ - ٣٤٨ .
- (١٩) أنساب الأشراف : الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ) ، تح . الدكتور سهيل زكار وآخرون ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ٢٠٩/١ .
- (٢٠) كتاب الطبقات الكبير : محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ) ، تح . الدكتور علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، ط١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، ٢١٣/٣ - ٢١٤ - ٢١٤ .
- (٢١) سير أعلام النبلاء : الذهبي ، / ١ - ٣٤٨ .
- (٢٢) مقامات ابن الجوزي . المقامة التاسعة والثلاثون (في الوعظ) / ٣١٥ .
- (٢٣) تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ط٤ ، ١٩٨١ ، / ١ - ٣٥١ .
- (٢٤) موسوعة التاريخ الإسلامية العصر الأموي : صلاح طهبوب، دار أسامة للنشر والتوزيع ، (د-ط) ، الأردن ، عمان ، ٢٠٠٩ / ٦ .
- (٢٥) موسوعة التاريخ الإسلامي العصر الأموي : صلاح طهبوب / ١٩٢ .
- (٢٦) الشعر والشعراء : لأبن قتيبة ، / ١ - ٥٦٣ .
- (٢٧) م - ن : / ٥٦٤ .
- (٢٨) م - ن : / ٥٦٥ .
- (٢٩) الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، ط١٥ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٢ ، ٢٠٨/٥ - ٢٠٩ .
- (٣٠) نزهة المسامر في أخبار مجنون بني عامر : لابن المبرد يوسف بن حسن الحنبلي ، تح . الدكتور محمد التتوجي ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م / ٥ - ٦ .
- (٣١) م - ن : / ٨ .
- (٣٢) مقامات ابن الجوزي . المقامة السادسة والثلاثون (في دواء العشاق) / ٢٨٨ - ٢٨٩ .
- (٣٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبي بكر بن خلكان ، ٦٩/٢ - ٧٠ .

(٣٤) كتاب الثقات : للأمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التيمي البستي(ت٣٥٤هـ) ، ط١ ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، ٤ / ١٢٣.

(٣٥) مقامات ابن الجوزي . المقامة التاسعة والثلاثون (في الوعظ) / ٣١١.

(٣٦) تاريخ الدولة العباسية : الدكتور محمد سهيل طقوش ، دار النفائس ، ط٧ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م / ٣٢ .

(٣٧) م - ن / ٣٠-٣١ .

(٣٨) صفوة الصفوة : أبي الفرج ابن الجوزي ، تح . محمود فاخوري ، دار المعارف ، ٢ / ٤٧١-٤٧٢-٤٧٣.

(٣٩) تاريخ دمشق : الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، تح . محب الدين

أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب-ط) ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ٥١ / ١٥-

١٦ .

(٤٠) مقامات ابن الجوزي . المقامة السابعة عشرة (في المواعظ) / ١٤٢ .

المصادر والمراجع

- ١- الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، ط١٥ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٢م، ج٥.
- ٢- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التورخ : الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ) ، تح . سالم بن غتر بن سالم الظفيري ، دار الأصبعي ، ط١ ، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
- ٣- أنساب الأشراف : الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري(ت٢٧٩هـ) ، تح . الدكتور سهيل زكار وأخرون ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ج١ .
- ٤- تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ط٤ ، ١٩٨١ ، ج١ .
- ٥- تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : دكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط١١ ، (د-ت).
- ٦- تاريخ الدولة العباسية : الدكتور محمد سهيل طقوش ، دار النفائس ، ط٧ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
- ٧- تاريخ العرب : الدكتور فيليب حتي وأخرون ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ط١ ، ١٩٤٩ ، ج١ .
- ٨- تاريخ دمشق : الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، تح . محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب-ط) ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ج٥١ .
- ٩- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، تح . محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، (ب-ط).
- ١٠- سير أعلام النبلاء : الأمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تح . د. بشار عواد معروف والدكتور محيي هلال السرحان ، ط١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ج١ .
- ١١- الشعر في حرب داحس والغبراء : عادل جاسم البياتي ، مطبعة الأدب في النجف الأشرف.
- ١٢- الشعر والشعراء : لأبن قتيبة ، تح . أحمد محمد شكر ، دار المعارف ، ج١.
- ١٣- صفوة الصفوة : أبي الفرج ابن الجوزي ، تح . محمود فاخوري ، دار المعارف ، ج٢ .

- ١٤- العقد الفريد : الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) ، تح . دكتور عبد المجيد الترحيني ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م ، ج ٦
- ١٥- كتاب الثقات : للأمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التيمي البستي(ت٣٥٤هـ) ، ط١ ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، ج ٤ .
- ١٦- كتاب الطبقات الكبير : محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ) ، تح . الدكتور علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، ط١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، ج ٣ .
- ١٧- مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد ١٨ ، العدد(١) ، السنة ٢٠٢٢
- ١٨- مفهوم التاريخ : عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي ، ط٥ ، المغرب ، ٢٠١٢م ، ج ١ .
- ١٩- مقامات ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، تح . محمد نقش ، دار فوزي للطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٠م .
- ٢٠- المقدمة : العلامة ولي دين عبد الرحمن بن محمد أبين خلدون (ت٨٠٨هـ) ، تح . عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، ط١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، ج ١ .
- ٢١- موسوعة التاريخ الإسلامية العصر الأموي : صلاح طهبوب، دار أسامة للنشر والتوزيع ، (د-ط) ، الأردن ، عمان ، ٢٠٠٩ .
- ٢٢- نزهة المسامر في أخبار مجنون بني عامر : لابن المبرد يوسف بن حسن الحنبلي ، تح . الدكتور محمد التتوجي ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
- ٢٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تح . الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج ٢ .